(شط العرب في العراق) · وفي هذا الاختلاف ينتصب عنصر متميز يحدد الاطار الخاص الذي تتم فيه هذه العلاقة · هذا العنصر هو البعد المكاني ـ الزماني عن تلك الارض الاصيلة التي تقوم معها اكثر العلاقات حميمية وصدقا · ويؤدي هذا الى ان تشـــكل الارض البديلة خطرا مباشرا بالانقطاع المشار اليه آنفا وبمضاعفاته ، وذلك فيما تحمله في حد ذاتها من ايحاء بتلك الاصيلة ، بما في ذلك الايحاء المقبول من خطأ وتوهم · فيكون هذا التوهم ، هذا الخطأ ، وقوعا خطرا في الشرك المثلث الذي يتهدده ، ويتفاقم خطره كلما تفاقم رسوخه ، كلما امعن في البعد الزماني ـ المكاني عن فلسطين ·

والمطلع يقدم لنا عينة عن هذا الخطر في شكله الاولي البسيط · فأبو قيس يفكر مستلقيا على الشط ، على الارض الندية النابضة تحته : « هي لا شك بقايا من مطر امس ·· كلا ، امس لم تمطر !· لا يمكن ان تمطر السماء الان الا قيظا وغبارا ! أنسيت اين انت ؟ أنسيت ؟ » · ويدور مستلقيا على ظهره ليعلن لنفسه : « كلا ، لم تمطر امس ، نحن في اب الان »··· ، ثم : « نحن في اب ! اذن لماذا هذه الرطوبة في الارض ؟ انه الشط ! ألست تراه يترامى على مد البصر الى جانبك ؟ » (٣٨) · فيبدو لنا ابو قيس يخطىء في تحديد الوضع (الارض البديل) زمانيا ومكانيا ، اذ يسقط عليه مقاييس وضع اخـر (الارض الاصيل) توهما يخلط بين الوضعين ولا ينجو منه الا بالذاكرة التي تقـوم بالتحديد الصحيح · واذا كان التوهم زمانيا ـ مكانيا فان جهد الذاكرة وهو كذلك زماني مكاني ، يدحضه · فكأن الذاكرة ، بما هي صنو للماضي ، تعلن ازاء الانقطاع الحاصل في علاقة ابي قيس بأرضه الاصيلة ، كما تتمثل في التوهم القائم وفي المخاطر الحادة التي يتضمنها ، ضرورة العودة الى تلك العلاقة ، الى الارتباط بفلسطين ، على انه فيـه تتمثل الحقيقة الصادقة ، وتنعدم في تلك الصلة الاصيلة بالارض والتاريخ مخاطر الخيانة والعجز والموت ، لتقوم بديلها انفتاحات الوفاء والقدرة والحياة ·

هكذا تتحدد في المطلع وجهة قراءة الرواية التي تبدو ، كما لاحظنا ذلك عبر دراستنا له ، مثقلة بالابعاد الرمزية ، رغم الواقعية الحادة التي يتسم بها اسلوبها (*) · كما تتضح بنيتها العامة ·

واذا تركنا مسألة توضيح هذه الابعاد الرمزية الى حين تفسير البنية الروائية العامة في المفاصل المحورية التي تستند عليها هيكليتها ، فان علينا ان نشير في البداية الى هذا الاشكال المرهف الذي يشكله الرمز بحد ذاته ·

(*) معظم الذين درسوا هذه الرواية ـ او روايات كنفاني اجمالا ـ اشاروا الى هذه الابعاد الرمزية ذاهبين فيها مذاهب شتى ·· لكن لم يقدم اي منهم دراسة جدية في هذا الخصوص· فقد سقطوا جميعا في اسقاط دلالات محددة على بعض العناصر الرمزية المتفرقة التي تحفل بها الرواية ، دون ان يبين البنية العامة والكلية للرواية التي وحدها ـ هذه البنية ـ تتيح تمييز الابعاد الحقيقية لما ترمز اليه هذه الرواية ، وبالتالي تمييز الابعاد الحقيقية لكـل عنصر من عناصرها · خارج هذا الاطار يتعدى مفهوم الصحة في الدراسة التوفيق فـي التقاط دلالة رمزية ما ·· ليتحدد في المنهجية العامة التي يأتي فيها · وليس لنا هنا ان نثقل السياق بالتوقف التفصيلي عند مختلف المعالجات النقدية ، مكتفين بهذه الاشارة العامة ·